بن مرداس، وديوان ضرار بن الخطاب، وديوان كعب بن زهير، وشعر صفية بنت عبد المطلب، وديوان الشماخ بن ضرار، والمزرد بن ضرار، والحطية، وأبي محجن الثقفي[1]، ديوان حميد بن ثور، ديوان لبيد، ديوان تميم بن مقبل، ديوان سحيم بن وثيل، ديوان عمرو بن معدي كرب هذا عدا المقطوعات المتناثرة في كتب الأدب والتاريخ والتي تبلغ أكثر من ست عشرة وأربعمائة مقطوعة. ومن ثم فإننا في نهاية الحديث عن هذا الأمر يجب أن نعلن أن المقولة التي ادعاها المدعون بأن الشعر قد قلت مكانته وضعفت منزلته في صدر الإسلام مقولة باطلة مردها إلي فهم سيئ لموقف الإسلام من الشعر وإلي عدم تبصر قائليها بموقف الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم من ذلك الفن الجميل، كما أنهم لم ينتبهوا إلي أن الشعر الإسلامي في معظمه أليف اللفظ قريب المعنى سهل العبارة رشيق الأسلوب ليس فيه من فخامة التركيب والديباجة البدوية وغرابة اللغة مما حدا بأصحاب اللغة ومتتبعي الشواهد إلي نبذه وعدم الاهتمام به لأنهم كانوا يبحثون عن الشعر العويص المعني الغريب اللفظ المملوء بداوة وجزالة وفخامة فلما وجد أصحاب هذه المقولة عدم اهتمام أصحاب اللغة بذلك الشعر زعموا ذلك الزعم. والحق أن في كل ما أوردناه رد مفحم علي مقولتهم وتفنيد واضح لمزاعمهم وعودة صحيحة إلي فهم الشعر في صدر الإسلام ومعرفة مكانته العالية خاصة عند النبي ﷺ وصحبه الكرام.

المديح النبوي زمن رسول الله ﷺ

من المعلوم لدي دارس الأدب العربي أن الشعر ديوان العرب، وأن فن المديح من أكبر فنون هذا الديوان ، إن لم يكن أكبرها علي الإطلاق. والمديح هو فن الثناء والإطراء وإبراز مواهب الممدوح والتغني بصفاته ،

(١) انظر موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي: عبد عون الروضان التي أحصي فيها ما يقل عن (١٤٠٩) تسعة وأربعمائة وألف شاعر في هذين العصرين والموسوعة ط١، دار أسامة، عمان سنة ٢٠٠١

ونعته بنعوت قد لا تكون من جملة شمائله؛ ولذا كان هذا الفن بابا للتكسب لدي الشعراء ومدخلا للنفاق والرياء .[1]

ولكن الأمر في فن المديح النبوي يختلف كثيرا فقائله يلمس فيه الصدق والإخلاص ، ينظم بلا هوي وينشد بلا غرض، هدفه الانتصار للدين الحنيف ومبادئه الكريمة ، والتقرب إلي الله ورسوله.

والحق أننا لم نجد شخصية قد احتفل بها الشعراء كشخصية نبينا الكريم محمد ﷺ، فلقد رافقه الشعر منذ ميلاده حتى وفاته راصدا صفاته، راسما شخصيته، مبرزا أخلاقه وأعماله ومعجزاته ، مبينا فضله علي العالمين. وإذا حاولنا أن نرصد أبرز العلامات الواضحة في مديحه ﷺ في حياته فإننا سنجد أن أول ما تطالعنا به المصادر في هذا الصدد أبيات أوردها صاحب السيرة النبوية " تنسب إلي عبد المطلب جد الرسول ﷺ قالها إثر مولد النبي عليه السلام مباشرة مطلعها :

الحمـــد لله الذي أعطـــاني هذا الغلام الطيـب الأردان
قد ساد في المهد علي الغلمان أعيذه بالبيـت ذي الأركان [2]
(٢)

ولما فصلت العير بمحمد الرضيع إلي ديار بني سعد قالت السيدة آمنه أم النبي ﷺ أبياتا تعيذه فيها من الشرور، وتدعو الله أن تراه فتي يافعا ورجلا حامل الحلال داعيا إليه ، تقول فيها .

أعـيـذه بالله ذي الجـلال من شر مامرَّ علـي الجبال
حتى أراه حامـل الحـلال ويفعل العرف إلي المـوالي[3]

---

(١) انظر هذا الموضوع في مجلة الأزهر، جـ٣،السنة الستون/ عدد ربيع أول سنة ١٤٠٨هـ- نوفمبر سنة ١٩٨٧ بعنوان " المديح النبوي زمن رسول الله عليه وسلم /د. غريب محمد علي.

(٢) السيرة النبوية / ابن اسحاق / ج١ صـ ١١٤ ، وفي رواية أخري تروى كلمة " السعد بدلا من الحمد " وكلمة "بالله" في البيت الثاني بدلا من كلمة بالبيت "، وانظر – سيرة ابن هشام القسم الأول صـ١٦٠، وانظر – الطبقات الكبري – ابن سعد – مجلد ١ ص ١٠٣ / ط بيروت سنة ١٩٥٧.

(٣) الطبقات الكبري / جـ١،صـ١١١.

ولما بلغ ﷺ من العمر خمس سنين قدمت به السيدة حليمة إلي أمه لترده إليها فأضلها في الناس فالتمسته فلم تجده، فأتت عبد المطلب فالتمسه فلم يجده ، فقام عند الكعبة قائلاً :

لاهم أد راكبي محمدا أده إلي واصنع عندي يدا
أنت الذي جعلته لي عضدا لا يبعد الدهر به فيسعدا
أنت الذي سميته محمدا[1]

ولا تسعفنا المصادر التي بين أيدينا بشئ من الشعر قيل في الرسول ﷺ منذ عودته من ديار بني سعد إلي بعثته إلا بأبيات لأبي طالب يذكر فيها ما وصاه به بحيرا الراهب وإشارته إلي أنه النبي المنتظر وما أعلمه من محاولة اليهود قتل النبي ﷺ، يقول أبو طالب :

إن ابن أمنة النبي محمدا عندي بمثل منازل الأولاد
راعيت فيه قرابة موصولة وحفظت فيه وصية الأجداد
حتى إذا ما القوم بصرى عاينوا لا قوا علي شرك من المرصاد
قوما يهودا قد رأوا ما قد رأي ظل الغمام وعز ذي الأكباد
ساروا لقتل محمد فنهاهم عنه وأجهد ، أحسن الإجهاد[2]

وقبيل البعثة بقليل تروي أبيات لورقة بن نوفل نشعر معها بما كانت تحدثه به السيدة خديجة رضي الله عنها من أمر الرسول ﷺ يقول فيها :

لججت وكنت في الذكري لجوجا لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف فقد طال انتظاري يا خديجا
بما خبرتنا من قول قس من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمدا سيسود فينا ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور يقيم به البرية أن تموجا[3]

---

(١) الطبقات الكبري /جـ١، صـ١١٣.
(٢) السيرة النبوية/ ابن اسحاق / جـ١ ، صـ ١٤٨ .
(٣) سيرة ابن هشام/ قسم١ص١٩١وهناك أبيات أخري يرويها ابن اسحق في سيرته ج١،ص ١٩٣.

وبعد بعثته ﷺ انقسم الناس إلي مؤيدين ومعارضين وحمل كل فريق سلاحا ينافح به في وجه الآخر . وكان الشعر أحد هذه الأسلحة بل أمضاها أثرا في النفوس، ولذلك نجد شعرا كثيرا لأبي طالب عم النبي ﷺ يدافع به عن النبي وينافح ، ومن ذلك ما قاله مفتخرا بقومه عبد مناف الذين شدوا أزر الرسول في الحصار الذي ضربته قريش حولهم :

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا ... هو المصطفي من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها[1]
حلومها[1]

ومن الملاحظ أن هذه الأبيات يغلب عليها طابع الفخر أكثر من المديح النبوي ، وهناك قصيدة طويلة تروي أيضا لأبي طالب يظهر فيها مدحه للرسول ﷺ، وهي التي يقول فيها.

أشم من الشم البهاليل ينتمي ... إلي حسب في حومة المجد فاضل
فلازال في الدنيا جمالا لأهلها ... وزينا لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله في الناس أى مؤمل ... إذا قاسة الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلها ليس عنه بغافل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعني بقول الأباطل[2]

وثمة أبيات لسيدنا حمزة بن عبد المطلب يحمد الله فيها علي إسلامه وينوه فيها بالرسول ﷺ إذ يقول:

حمدت الله حين هدي فؤادي ... إلي الإسلام والدين الحنيف
وأحمد مصطفي فينا مطاع ... فلا تغشوه بالقول العنيف

---

(١) ديوان شعر أبي طالب/ورقة ٨/محطوط بدار الكتب المصرية برقم٣٨،انظر سيرة ابن اسحق/ ج١ ص٢٢٠ ص٢٢٠

(٢) ديوان شعر أبي طالب / ورقة ٣ ، وانظر سيرة ابن هشام / قسم ١ صـ٢٨٠. وهي قصيدة تبلغ أكثر من من تسعين بيتا ، ويقول عنها ابن سلام أبرع ما قال قصيدته التي مدح فيها النبي صلي الله عليه وسلم .
وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ... ربيع اليتامي عصمة للأرامل
انظر طبقات فحول الشعراء / ابن سلام الجمحي / جـ١ ، صـ٢٤٤ / تحقيق محمود محمد شاكر / ط المدني بجدة سنة ١٩٨٠ .

إذا تـليـت رسـائـله علينـا تحـدر دمـع ذي اللب الحصـيف[1]
الحصـيف[1]

وفي هذه المرحلة نجد قصيدة الأعشي التي يقول فيها :

ألم تغتمض عيناك ليـلة أرمـدا وعـادك ما عـاد الـسليـم المسهدا
أجـدك لم تسمـع وصاة محمـد نبـي الإله حـين أوصي وأشهـدا
نبـي يري مالا تـرون وذكـره أغار لعمـري في البـلاد وأنجـدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقـي ولا قيـت بعد الموت من قـد تزودا
ندمت علي أن لا تـكون كمثـله وإن لم تـرصد لما كان أرصـدا [2]

وهي قصيدة يشك فيها بعض الباحثين ويري أنها منحولة عليه، ولسنا هنا بصدد مناقشة قضية الانتحال فسواء كانت هذه القصيدة للأعشى أم لغيره فإننا لا نستطيع أن نخرجها من دائرة المديح النبوي .

وفي هذه المرحلة – مرحلة الدعوة في مكة – نجد بعض القصائد والمقطعات لبعض الصحابة المهاجرين إلي الحبشة مثل عبد الله بن الحارث الذي يقول عندما وصل إلي الحبشة وأمن علي نفسه:

كل امرئ من عباد الله مضطهـد ببطـن مكـة مقهـور ومفتـون
إنا وجـدنا بـلاد الله واسعـة تنجي من الـذل والمخزاة والهـون
إنا تبعـا رسول الله واطرحـوا قـول النبي وعالوا في الموازين [3]

وفي هذه المرحلة نجد أيضاً قصيدة النابغة الجعدي التي تعد من أقدم ما وصل إلينا من قصائد المديح النبوي والتي يقول فيها.

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدي ويتلو كتابا كالمجـرة نيـرا
أقيم علي التقوي وأرضي بفعلها وكنت من النارالمخوفة أحذرا[4]

وفي تلك المرحلة لا نكاد نسمع عن أحد من الصحابة في مكة قال شعرا مدح فيه النبي ﷺ إلا نادرا ، ولعل ذلك راجع إلي سرية الدعوة من

---

(١) سيرة ابن اسحاق / جـ ١ / صـ٢٤١.
(٢) ديوان الأعشي / شرح وتعليق د. محمد حسين/ صـ١٣٧ / ط النموذجية سنة ١٩٥٠.
(٣) سيرة ابن اسحق / جـ١، صـ٢٩٣.
(٤) الأغاني / جـ٥/ صـ٩ .

جانب والحفاظ علي الدين والنفس من جانب آخر، وإلي تحرج الصحابة رضوان الله عليهم من قول الشعر من جانب ثالث، ومن الأشعار القليلة التي وصلت إلينا من هؤلاء الصحابة قول عثمان بن مظعون :

رسول عظيم الشأن يتلو كتابه له كل من يبغي التلاوة وامق
فيارب إني مؤمن لمحمد وجبريل إذ جبريل بالوحي طارق (١)

أما إذا انتقلت إلي يثرب – دار الهجرة – فإننا نجد الموقف يتغير تماما فالشعر قد كثر واختلفت طبيعته، واشتهر أكثر من شاعر في مديح الرسول ﷺ وفي الدفاع عن الدين، فلقد قويت شوكة المسلمين، وما عاد هناك شئ يخيفهم . وكان لابد أن يواجه الشعراء المسلمون شعراء الشرك كما واجهت الجنود كفار قريش في المعارك والحروب، ولم تعد هناك سرية للدعوة، كما أن موقف الإسلام من الشعر قد ظهر ظهورا جليا.

وكان علي رأس هؤلاء الشعراء حسان بن ثابت الذي عرف بشاعر الرسول . ومن أشهر مدائحه النبوية قصيدته التي يقول فيها :

عفت ذات الأصابع فالجواء إلي عذراء منزلها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر تعفيها الروامس والسماء
وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم لا نقوم ولا نشاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لاعيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء(٢)

ومن قصائد المعروفة الذائعة الصيت في هذا المجال قصيدته التي يقول فيها

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضي بها كل من كانت سريرته تقوي الإله وبالأمر الذي شرعوا
أكرم بقوم رسول الله قائدهم إذا تفرقت الأهواء والشيع (٣)

---

(١) سيرة ابن إسحاق ، جـ١ ، صـ٢٤٩.
(٢) ديوان حسان / صـ٧١ – ٧٦ .
(٣) ديوان حسان ،صـ٢٣٨، ٢٣٩.

ومن الطبعي أن يتحدث الشعراء المسلمون عن شخصية الرسول ﷺ فهو أساس الدين وحامل رسالة السماء إلي الأرض والصابر علي البلوي ومبدد يجور الشرك، يقول كعب بن مالك الذي يعلن وجوب طاعة النبيﷺ :

فينا الرسول شهـاب ثـم نتبعه نور مضئ له فضـل علي الشهب
الحق منطقه والعـدل سيرتـه فمن يجبـه إليه ينـج مـن تبب[1]
تبب[1]

وقد ركز الشعراء في هذه المرحلة علي شجاعة النبي ﷺ وقوة شكيمته ونضاله في سبيل الحق ، يقول كعب بن مالك في غزوة الطائف :

رئيسهـم النبـي وكان صلـبـا نقـي القلب مصطبـرا عزوفـا
رشيـد الأمـر، ذ وحكم وعلـم وحلـم لـم يكن نـزفا خفيفـا[2]

ومن أهم ما وصف به الشعراء النبي ﷺ الرحمة والعطف والشفقة والعدل والزهد والورع والتقوى ومعظمها صفات دينية ، بالإضافة إلي ما استمدوه من بيئتهم كالشجاعة والشهامة والنخوة والكرم وقد مزجوا ذلك كله في قصائدهم التي مدحوا بها النبي ﷺ . ومما يلفت النظر في هذه المرحلة أبيات منسوبة إلي العباس بن عبد المطلب ، وقصيدة " بانت سعاد " . أما أبيات العباس فإنها تضيف عنصرا جديدا إلي فن المديح النبوي وهو عنصر " النور المحمدي أو ما يسمي بالحقيقة المحمدية ، يقول العباس مخاطبا النبي ﷺ :

من قبلها طبت في الظلال وفـي مستـودع حيـث يخـصف الـورق
ثـم هبطـت البلاد لابشـر أنـت ولا مضغـة ولا عـلـق
تنقل من صالـب إلـي رحـم إذا مضـي عالـم بـدا طبـق
وردت نـار الخليـل مكتتمـا في صلبـه أنـت كيـف يحتـرق[3]

---

(١) ديوان كعب بن مالك / صـ ٢٥ . وانظر سيرة ابن هشام / ق ٢ ، صـ١٦١ .
(٢) ديوان كعب بن مالك / صـ٦٨ .
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب / ابن عبد البر ، جـ ١ ، صـ١٦٥ / ١٦٦ ، طـ حيدر أباد – الدكن – الهند سنة ١٣١٨ هـ .

فالعباس يريد أن يقول للرسول ﷺ لقد كنت من قبل هيئتك الجسدية نورا لطيفا تنقل من الأصلاب الطاهرة إلي الأرحام الزكية فلقد كنت مع آدم في الجنة ومع نوح في سفينته ومع إبراهيم في ناره ، وقد أخذ هذا النور يتنقل حتى ظهر في صورة جسدية هي صورة النبي ﷺ.

وأما قصيدة كعب بن زهير التي يقول فيها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول
أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول[1]

فهي قصيدة جليلة الخطر، عظيمة الشأن في تاريخ المدائح النبوية وذلك لما اكتنفها من القصة التي حكيت حولها وهي أن كعبا أنشدها بين يدي الرسول ﷺ معتذرا عما بدر منه طالبا العفو من رسول الله ﷺ فعفا عنه النبي وألقي عليه بردته [2]

ويتمثل خطرها في أن بعض الشعراء قد ادعوا أنهم أنشدوا قصائدهم – مناما – بين يدي رسول الله ﷺ، وأن بعضهم كان يستعصي عليه بيت فيتمه له الرسول أو يغير كما غير لكعب قوله " مهند من سيوف الهند " إلي " مهند من سيوف الله " .

ويتمثل خطرها أيضا في فن المعارضات والتشطير، وأنها أصبحت بمثابة قاعدة يحتذي بها كثير من الشعراء عند مديحهم النبي حيث يبدأ المادح النبوي بالنسيب وينتقل إلي الحديث عن الديار الحجازية ثم وصف الرسول وإبداء الأسف علي التقصير في حقه ﷺ ثم يتوسل به إلي رب العزة سبحانه وتعالي، ويرجو أن يكون شافعا له يوم القيامة ، ثم إنها ترجمت إلي عدة لغات .

وفي نهاية الحديث عن فن المديح النبوي زمن رسول الله ﷺ يمكن القول بأن هناك مديحا تقليديا سار علي الطريقة الجاهلية مع تطعيمه

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير، ص٦، ٢٣، صنعه أبي سعيد السكري، ط٣، دار الكتب المصرية سنة٢٠٠٢م سنة٢٠٠٢م

(٢) انظر سيرة ابن هشام / قسم ٢ صـــ٥٠٣ .

بالمبادئ الإسلامية، وآخر مباشرا يمدح فيه صاحبه النبي بلا سابق مقدمات، وثالثا تسيطر عليه نغمة الفخر والحماسة ورابعا يختلط بهجاء الأعداء، وخامسا ظهرت فيه فكرة الحقيقة المحمدية .